صفحة من التاريخ الدامي للشيعة في الشام

● الدكتور محمد علي مكّي

كسروان من التشيع إلى المورنة

كسروان هي اليوم قضاء في محافظة جبل لبنان مركزه بلدة جونيه، وفي القديم كانت مقاطعة لبنانية تمتد بين نهر الكلب ونهر ابراهيم، وكانت من مراكز الشيعة في لبنان إلى أن قضى عليهم المماليك سنة ١٣٠٥ ميلادية وفعلوا بهم الأفاعيل من الذبح والهتك والحرق والهدم والسبي. وذلك نتيجة التعصب الأعمى المجرم وتحريض مشايخ السوء وفتاواهم. فحل الموارنة المسيحيون محل الشيعة في تلك المنطقة ولم يبق منهم فيها اليوم إلا بقايا قليلة.

ولقد كان لابن تيمية وتحريضه أكبر الأثر في ذلك ثم أصدر فتوى يبرر فيها كل الفظائع التي جرت، ويحرض المماليك على الشيعة في مناطق أخرى، في دمشق وفلسطين وطرابلس وحمص وحماه وحلب.

ومن المؤسف أن كاتباً لبنانياً نشر في مجلة تصدرها دار الفتوى الإسلامية في بيروت اسمها «الفكر الإسلامي» في شهر جمادى الثانية سنة ١٣٩٨ الموافق حزيران ١٩٧٨ مقالاً أراد منه أن يكون تمهيداً لنشر فتوى ابن تيمية. فرد الدكتور محمد علي مكي مفترياته بما يأتي:

لو كان لصاحب المقال حس غير التعصب الأعمى لكان أشار إلى الخطأ الاستراتيجي الذي ارتكبه المماليك بالقضاء على شيعة كسروان وتفريغ المنطقة منهم، لأن عملهم ذاك سبب امتلاءه بالموارنة فيما بعد، كما سبب خطأ العثمانيين تفريغ جزين من الشيعة لتمتلئ بعد ذلك بالموارنة.

ونأخذ على كاتب المقال قصر نظره في التاريخ فقد أهمل الظروف التي كانت سائدة في الربع الأخير من القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر ومنها: العداوة الإقطاعية والمذهبية بين تنوخيي الغرب وشيعة كسروان، وتحالف الشيعة مع مماليك دمشق وأمرائها الأيوبيين وكلهم سنة، ومحاربة الشيعة مع قلاوون وسيرغي حاكم جبيل ضد الصليبيين في طرابلس والصراعات المملوكية فيما بينهم للوصول إلى السلطة وتحالفاتهم مع المغول ومع الصليبيين، كل ذلك أهمله كاتب المقال ليخرج علينا بهذه الفتنة التي أسماها التحالف الشيعي الماروني الانفصالي تحالف الروافضة. الموارنة لتحقيق المخطط الانفصالي.

نأخذ على كاتب المقال أنه لم يُزوِّر فحسب بل هو يهيئ للفتنة.

هذا هو موقفنا العاطفي من الزاوية الدينية الإسلامية، أما الموقف العلمي فيقوم على مقارعة النص بالنص وتقديم الحجة الدامغة.

المناقضة العلمية للمقال

هناك قاعدة في دروس التاريخ وفي الشرع، وهي أن قول نصف الحقيقة هو تزوير وكتم معلومات وفي شرح الحروب الكسروانية كما أوردها كاتب المقال قول لنصف الحقيقة، وها نحن نقدم، ولمن يشاء الحقيقة عن تلك الحروب، مأخوذة من مختلف مصادرها، ونقسمها من أجل الوضوح إلى أربع مراحل: مرحلة أولى تتناول موقف السلطان بيبرس من الشيعة، ومرحلة ثانية هي تحالف الشيعة مع الأمير المملوكي سنقر الأشقر صد قلاوون، ومرحلة ثالثة هي الصراع التنوخي الأشقر صد قلاوون، ومرحلة ثالثة هي الصراع التنوخي الكسرواني، ومرحلة رابعة وأخيرة هي تصفية الشيعة الكسروانيين.

المرحلة الأولى: بيبرس والشيعة:

استلم المماليك السلطنة في مصر، وهم غير عرب وكان العالم الإسلامي بدون خليفة بعد سقوط بغداد في أيدي المغول، وقد عمل السلطان بيبرس على إعادة الخلافة العباسية ونقلها إلى القاهرة، ثم عمل على توحيد جميع المذاهب الإسلامية بمذاهب السنة الأربعة، وحرم بقية المذاهب وعاقب عليها ابتداء من سنة ١٢٦٧ ميلادية، وفي ذلك يقول المقريزي: أمر بيبرس باتباع المذاهب السنية الأربعة وتحريم ما عداها، كما أمر بأن لايولي قاض ولاتقبل شهادة أحد ولا يرشح لإحدى وظائف الخطابة أو الإمامة أو التدريس مالم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب، المقريزي -ج٤- ص١٦١.

ويقول ابن حجر كان الناس إذا أرادوا أن يكيدوا لشخص دسوا عليه من رماه بالتشيع، فتصادر أملاكه وتنهال عليه العقوبات والإهانات حتى يظهر التوبة من الرفض، ابن حجر الدرر الكامنة- ج٧- ص٦٦.

بهذه الروحية وبهذه العقلية قدم المماليك إلى لبنان، حيث كانت الطوائف تعيش متآلفة ومتجاورة لاتعرف التعصب ولاتتعامل به.

ولكن بما أن السواحل اللبنانية كانت ماتزال في أيدي الصليبيين، فإن قرارات بيبرس الدينية لم تأخذ طريقها إلى التنفيذ وبالتالي فإنها لم تؤثر في المناطق اللبنانية.

ولم يسجل التاريخ أي تصادم بين شيعة كسروان والظاهر بيبرس، بينما سجل التاريخ التصادم بين التنوخيين وبيبرس، وكذلك التصادم بين موارنة الشمال وبيبرس بسبب تعاونهما مع صليبيي طرابلس وبيروت.

لقد كان السكان في لبنان مايزالون غير واثقين من متانة الحكم المملوكي الجديد بسبب الوجود الصليبي في السواحل ووجود الأمراء الأيوبيين في الداخل ووجود المغول ما وراء الحدود، وقد ظهر ضعف الثقة هذا في موقف أمراء الغرب التنوخيين الذين انقسمت أهواؤهم بين المماليك والأيوبيين مع المغول والصليبيين مما جعل بيبرس يعمد بعد استقراره في الحكم إلى سجن ثلاثة زعماء منهم في سنة ١٢٧١ وهم: زين الدين بن علي وجمال الدين بن حجي وسعد الدين خضر، وظل هؤلاء في السجن حتى وفاة بيبرس أما شيعة كسروان فبقيت غير خاضعة رسمياً للدولة الجديدة بسبب الوجود الصليبي في الساحل.

المرحلة الثانية: تحالف الشيعة مع الملك الكامل شمس الدين سنقر الأشقر:

بعد وفاة السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٧٧ والفترة القصيرة التي حكمها ولداه بركة وسلامش استولى على السلطة في مصر أحد مماليك بيبرس وهو السلطان المنصور قلاوون فما كان من الأمير المملوكي شمس الدين سنقر الذي كان في دمشق إلا أن أعلن نفسه ملكاً على بلاد الشام باسم الملك الكامل وقد استفتى سنقر هذا قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان في قتال الملك المنصور فأفتاه بجواز قتاله. ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور - ص ٦٨ - وبذلك أصبحت بلاد الشام سنة ٦٧٨ هجرية مملكة مملوكية منفصلة عن المملكة ا لمملوكية في مصر، وقد تحالف الملك الكامل سنقر الأشقر مع التنوخيين ومع الجرديين شيعة كسروان ومع أمير العرب عيسى بن مهنا آل فضل على بناء الدولة الجديدة.

هذا الحلف الإسلامي الواضح صوره كاتب المقال حلفاً بين الموارنة والروافضة فسبحان الله، وكان مع الملك سنقر عدد كبير من الأمراء المماليك، ولم يكن هذا الحلف متعصباً مذهبياً كما كان أمر بيبرس، ولذلك مال إليه اللبنانيون بمختلف طوائفهم ومقاطعاتهم، البعلبكيون والكسروانيون، والتنوخيون، وجاءت جيوش قلاوون من مصر إلى الشام فانهزم سنقر الأشقر وأعوانه وانفرط عقد ذلك التحالف إذ هرب سنقر الأشقر إلى قلعة صهيون في شمالي سورية وهرب معاونه عز الدين ازدمر الحاج إلى جبال الجرديين (كسروان) حيث لقي منهم الحماية وأقام عندهم مدة وتحصن بهم - ابن عبد الظاهر- تشريف الأيام والعصور -ص٦٨- ودخلت المناطق اللبنانية المحررة من الصليبيين في طاعة السلطان قلاوون، وأصدر السلطان عفواً عاماً عن جميع الناس الذين اشتركوا في حركة سنقر الأشقر، ثم عاد السلطان فأرسل رسالة إلى دمشق يؤكد فيها عفوه بقوله: إنا قد عفونا عن الخاص والعام، ومايليق أن يخص بالسخط أحداً على انفراده، وغير خاف مايتعلق بحقوق القاضي شمس الدين بن خلكان وقديم صحبته وخدمته، وأنه من بقايا الدولة الصالحية - ابن عبد الظاهر - تشريف الأيام والعصور ص٦٩ - ٧٠.

أما سنقر الاشقر وأمير العرب عيسى بن مهنا فقد راسلا المغول ودعوهم إلى البلاد وأنهم على استعداد لمساعدتهم، وفعلاً تحرك المغول واجتاحوا حلب وشمالي سورية، فتحرك جيش المماليك من دمشق إلى حماه لصد المغول وعلى رأسهم الأمير بدر الدين بكتاش النجمي، وعند حماه راسل المماليك شمس الدين سنقر الأشقر الموجود في قلعة صهيون وعز الدين ازدمر الحاج الموجود في قلعة شيزر وقالوا لهما:

العدو قد دهمنا وما سببه إلا الخلف فيما بيننا، وما ينبغي أن نهلك المسلمين في الوسط، والمصلحة أننا نجتمع على دفعه فنزل عسكر شمس الدين سنقر الأشقر من صهيون والحاج ازدمر من شيزر وخيمت كل طائفة تحت قلعتها، ولم يتجمعوا بالمصريين، واجتمعوا على اتفاق الكلمة ودفع العدو -ابن عبد الظاهر - شريف الأيام والعصور - ص ١٦.

هكذا يظهر ابن عبد الظاهر، المعاصر لتلك الفترة والذي كتب في ديوان قلاوون في القاهرة، الحقيقة عن الاتصال بالمغول، فليست شيعة كسروان هي التي دعت المغول، كما تجنى عليها كاتب المقال، أن أمراء المماليك هم الذين قاموا بذلك العمل، وقد آن الأوان لتصحيح التزوير التاريخي.

وبعد هزيمة المغول هرب أمير العرب عيسى بن مهنا إلى العراق والتجأ سنقر الأشقر إلى قلعة صهيون وذهب عز الدين ازدمر الحاج إلى القاهرة مستسلماً وذهب أمير التنوخيين ابن حجي إلى دمشق خاضعاً، ثم تم الصلح بين قلاوون وسنقر الأشقر فتمت سيادة المماليك على البلاد ماعدا مقاطعة كسروان، ثم تمكن السلطان قلاوون من أخذ قلعة صهيون وجوارها من يد سنقر الأشقر بعد افتاقهما وانتقل سنقر إلى القاهرة وبقيت مقاطعة كسروان الشيعية هي الوحيدة من ذلك التحالف السابق التي لم تخضع بعد للحكم الجديد.

وقرر نائب السلطان في دمشق لاجين غزو تلك المقاطعة وأرسل بذلك رسالة إلى الأمراء التنوخيين في الغرب يستعديهم على شيعة كسروان، فقد أورد صالح بن يحيى في تاريخ بيروت يقول: ومن مضمون مثال من ملك الأمر لاجين نايب الشام عن الملك المنصور قلاوون إلى جمال الدين وزين الدين بن علي أنه إذا بلغهما توجه المقر الشمسي سنقر المنصوري بالعساكر المنصورة إلى جهة كسروان والجرديين يتوجها إليه بمجموعهما وأهويتهما، وأن من نهب امرأة منهم كانت له جارية أو صبياً كان له مملوكاً ومن أحضر منهم رأساً فله دينار، وأن سنقر توجه لاستيصال (لاستئصال) شافتهم ونهب أموالهم وسبي ذراريهم وأنفسهم، تاريخه سابع جمادى الأولى سنة ٦٨٦هـ (تاريخ بيروت صفحة ٥٣) ونبادر هنا إلى توضيح بسيط حول سنقر المذكور فهو غير سنقر الأشقر حليف الشيعة سابقاً.

ونلاحظ من هذا النص أمرين: أولهما أن قلاوون لم يشمل بالعفو شيعة كسروان، وربما لأنهم لم يكونوا بعد قد أصبحوا من رعاياه، وثانيهما أن قلاوون عاد يتابع ساسية بيبرس الدينية من حيث محاربة المذاهب الإسلامية غير السنية وقد جاءت رسالة نائب السلطان في دمشق تعبر عن هذا الاتجاه بإباحة كسروان إباحة كاملة للجند المملوكي وللتنوخيين، بدون أي ذنب على الإطلاق اللهم إلا الاختلاف في المذاهب الدينية، بينما نرى كاتب المقال يجعل الانتقام من شيعة كسروان سببه أن الكسروانيين نهبوا العسكر المملوكي المهزوم أمام المغول سنة ٦٦٩ هـ فإذا كانت أحداث سنة ٦٦٩هـ هي سبب النقمة المملوكية سنة ٦٨٦ هـ الواردة في رسالة نائب الشام لاجين؟ وبين المناسبتين ١٣ سنة، إن من واجب المؤرخ أن يتحرى الأحداث وأسبابها ليستقيم له الربط التاريخي، وألا يصبح التاريخ كالبيانات الحزبية، أعور لا يرى إلا بعين واحدة.

ونعود إلى المسلسل الحزين للمأساة الكسروانية، فالمماليك لم يتوجهوا إلى كسروان وفقاً للأمر الصادر من نائب السلطان في دمشق، وربما أن ذلك عائد إلى أن الساحل اللبناني كان بمعظمه مايزال في أيدي الصليبيين.

لذلك لم يتحرك التنوخيون في الغرب لغزو كسروان في الشمال. وفي السنة الثانية أي سنة ٦٨٧ طلب السلطان قلاوون أمراء الجبال إلى مصر وأخذ أملاكهم وأقطاعهم وأولاد أمير الغرب ما حضروا فأخرج أملاكهم وأقطاعهم صالح بن يحيى - تاريخ بيروت ص٧٠ ويستدل من ذلك أن قلاوون كان ناقماً على الكسروانيين والتنوخيين فصادر أملاكهم، ولم يتسرجع التنوخيون أملاكهم وأقطاعهم إلا في عهد الأشرف خليل.

وهنا نأتي إلى ذكر تهمة الكسروانيين بمساعدة الصليبيين في طرابلس سنة ٦٨٨ هـ - (١٢٨٩م) وفي هذه التهمة التباس انطلى على كاتب المقال، فالكسروانيون الشيعة لم يتدخلوا في معركة طرابلس بدليل أن أحداً من المؤرخين المعاصرين لفتح المدينة لم يذكر ذلك. ومن المعروف أن المؤرخ أبا الفداء كان حاضراً في معركة طرابلس مع قلاوون ولم يشر إلى ذلك على الإطلاق. كما أن صالح بن يحيى التنوخي، وهو خصم الشيعة الكسروانيين لم يشر إلى ذلك، ولو كانت التهمة صحيحة لكانت في مصلحة التنوخيين، ولكن الالتباس حدث مع أن المؤرخين كابن الفرات والمقريزي ذكروا أن قلاوون عانى كثيراً من اعتداءات المردة (الموارنة) سكان الجبال المجاورة لطرابلس، وأنه قتل بسببهم عدة قادة مماليك (ابن الفرات - ج٨- ص٨٥) و (المقريزي - السلوك -ص٧٤٧) وبما أن الموارنة سكنوا كسروان بعد ذلك، أي بعد تفريغ كسروان من الشيعة، وأصبحوا يعرفون كذلك بالكسروانيين، فقد اختلط الأمر على بعض المؤرخين المحدثين من حيث الأسم، فجعلوا المساعدة المارونية للصليبيين أيام طرابلس مساعدة كسروانية وتناسى صاحب المقال الفارق الزمني بين السكنين: الشيعي والماروني في كسروان وهو حوالي قرنين ونيف من الزمن ونتيجة لهذا الالتباس أنشأ صاحب المقال تصوره بوجود حلف موارنة - روافضة، فكان تصوره ينم عما في النفس من هوى ويظهر كم هو بعيد عن الموضوعية في التاريخ.

المرحلة الثالثة - الصراع التنوخي - الكسرواني:

بعد سقوط طرابلس، أصبحت سيطرة المماليك كاملة في شمالي لبنان وأواسطه ساحلاً وجبلاً، وبقيت أملاك وإقطاعات التنوخيين وأمراء الجبال بما في ذلك أملاك الكسروانيين مصادرة بأمر السلطان قلاوون. وكان واقع الحال يدعو قلاوون إلى ضم كسروان نهائياً إلى دولته لأن شيعة كسروان كانوا آخر حليف لسنقر الأشقر، ولكن قلاوون آثر تأجيل ذلك حتى ينتهي من صليبيي عكا وجوارهم، ولم يتح العمر لقلاوون أن يحقق ذلك فقام بعده ابنه الأشرف خليل بإنهاء الوجود الصليبي في الشرق سنة ١٢٩١ ميلادية.

ثم عاد الأشرف خليل يتابع سياسة والده وخطته، فأمر بإرسال حملة عسكرية إلى كسروان.

أما التنوخيون فقد وَحَّدوا كلمتهم والتفوا حول السلطان الجديد الأشرف خليل، فتمكنوا من استرداد أملاكهم وإقطاعاتهم المصادرة منذ أيام قلاوون بينما بقيت أملاك بقية الجلبليين (الكسروانيين) مصادرة وفي سنة ١٢٩٢ توجهت الحملة المملوكية بقيادة الأمير بيدرا، ولنترك صالح بن يحيى في تاريخه عن بيروت يروي لنا تفاصيل تلك الحملة ثم نحلل ماخفي منها وعنها.

«توجه الأمير بيدرا بمعظم العساكر المصرية وصحبة من الأمراء الأكابر شمس الدين سنقر الأشقر والأمير قرا سنقر المصنوري والأمير بدر الدين بكتوت الأتابكي والأمير بدر الدين بكتوت العلاي وغيرهم وقصدوا جبال كسروان وأتاهم من جهة الساحل ركن الدين بيبرس طقصوا، والأمير عز الدين أيبك الحموي وغيرهما والتقوا بالجبل، وحضر إلى الأمير بيدرا من أثنى

عزمه وكسر حدته فحصل الفتور في أمرهم حتى تمكن من بعض العسكر في تلك الأوعار ومضايق الجبال، فاضطر الأمير بيدرا إلى إطابة قلوبهم والإحسان إليهم وخلع على جماعة من أكابرهم، فاشتطوا بالطلب فأجابهم إلى مالتمسوه من الافراج عن جماعة منهم كانوا قد اعتقلوا بدمشق لذنوب وجرائم صدرت منهم وحصل للكسروانيين من القتل والنهب والطفر مالم يكن في حسابهم، وحصل للأمراء والعسكر من الألم ما أوجب تصريح بعضهم بسوء تدبير الأمير بيدرا ونسبوه إلى أنه أهمل أمرهم وفتر عن قتالهم حتى تمكنوا مما تمكنوا منه لطمعه أنه تبرطل منهم وأخذ منهم جملة كثيرة واحتج الناس بذلك»، تاريخ بيروت ص٢٦.

هذه الرواية لا اختلاف عليها عند المؤرخين فماذا نستنتج منها؟ إن فيها عدة ملاحظات مهمة ينبغي الإشارة إليها:

١- إن الحملة الغازية لكسروان تحولت إلى تفاهم عميق بين بيدرا وقادته من جهة وبين زعماء كسروان الشيعة بحيث وصل التفاهم إلى تطييب قلوبهم والإحسان إليهم والخلع على جماعة من أكابرهم فهل يدل ذلك على تمرد الكسروانيين الشيعة وضلالهم وتحالفهم مع الموارنة؟ أم أنه يدل على تفهم قادة المماليك للكسروانيين والشعور معهم بالظلم والعدوان عليهم؟

٢- كان من الطبيعي أن تتحول تلك الحملة من حملة تأديب، كما اشتهى التنوخيون وبعض الدمشقيين إلى حملة سلام بمجرد أن اشترك فيها شمس الدين سنقر الأشقر الملك الكامل سابقاً لأنه كان حليفاً للشيعة أيام انفصاله عن قلاوون واستقلاله بسورية.

٣- إن اجتماع بيدرا مع سنقر ومع بقية أمراء المماليك في كسروان هيأ للجميع فرصة التداول فيما بينهم والاتفاق على مخطط معين ظهر بمجرد عودتهم إلى مصر، فقد عمد الأشرف خليل إلى قتل سنقر الأشقر وبدر الدين بكنوت وركن الدين طقصوا خنقاً مما أدى إلى انقلاب بيدرا على الأشرف خليل وقتله.

٤- لم يعجب التنوخيين وبعض الدمشقيين ماتم من تفاهم مملوكي شيعي في كسروان، فكان الدس من كل جانب، على شيعة كسروان وعلى الأمراء المماليك، حتى اتهموا بيدرا بالارتشاء، وخاصة أن هؤلاء الأمراء كانوا يمثلون الجناح المعتدل في دولة المماليك.

٥- دخلت الدولة المملوكية، بعد تلك الحملة السلبية في دوامة انقلابات دموية، أضعفت قوتها وأنقصت هيبتها حتى نهاية القرن السابع الهجري والثالث عشر الميلادي وأدت تلك الفوضى إلى اتصال عدد من كبار أمراء المماليك بالمغول مجدداً لاستعدائهم على الدولة المملوكية، ثم صارت تلك التهمة سبباً لقتل المتهم بها، فقتل معظم أمراء المماليك بسببها.

٦- هدأت الأوضاع في كسروان بعد حملة بيدرا واطمأنت الشيعة إلى سلامة موقفها فتكاثروا واشتدت شوكتهم واعتصموا بجبالهم المنيعة وجموعهم الكثيرة، بينما كان المماليك غارقين في انقلاباتهم الدموية حتى كانت غزوة المغول الثالثة سنة ١٢٩٩ ميلادية فتجددت المشكلة الكسروانية التي أدت إلى تصفية الشيعة في كسروان.

المرحلة الرابعة - تصفية الشيعة في كسروان:

خلال ثماني سنوات من سنة ١٢٩٢ إلى ١٣٠٠ ميلادية عرفت البلاد حكم ستة سلاطين جاؤوا بالانقلابات وذهب أكثرهم بالقتل، وكان البارز من هؤلاء حكم زين الدين كتبغا (١٢٩٤ - ١٢٩٦) الذي كان مغولي الأصل وشجع مجيء المغول إلى البلاد، وبالفعل جاءت إحدى القبائل المغولية المعروفة بقبيلة الأويراتية المؤلفة من ١٨ ألف عائلة، فأسكنهم كتبغا في شمالي فلسطين. والغريب في هذا السلطان أنه كان يقتل أعداءه بتهمة الاتصال بالمغول بينما كان هو يتصل بهم ويشجع قدومهم (مراجعة المقريزي - السلوك - أخبار سنة ٦٩٥هـ) وفي سنة ١٢٩٨ أعاد المماليك السلطان الصغير محمد بن قلاوون إلى الحكم ولكن عدداً من أمراء المماليك التحقوا بالمغول واجتاحوا شمالي سورية وهزموا الجيش المملوكي في الشام، وأدى تشتت الجيش المملوكي إلى التجائه إلى الجبال هرباً من ملاحقة المغول، وقد تعرض هؤلاء الجنود للنهب والسلب والأسر من أهالي الجبال، كما يحدث للجيوش المهزومة عادة. وكان الكسروانيون من جملة الذين نهبوا وسلبوا وأسروا جنود المماليك.

فلما انتهت الحرب ورجع المغول إلى بلادهم، عادت الدولة المملوكية فوجهت سنة ١٣٠٠ ميلادية حملة تأديبية على كسروان، وفي ذلك يقول صالح بن يحيى: إن الهاربين من عساكر الملك ناصر محمد بن قلاوون من قازان سنة ٦٩٩ (١٢٩٩) تفرقوا في البلاد فحصلت لهم الأذية من المفسدين خصوصاً من الأهالي كسروان بالغوا إلى أنهم أمسكوا بعض الهاربين وباعوهم للفرنج، وأما التشليح والقتل فكان كثيراً، وكان ناهض الدين بحتر إذا مر عليه أحد من الهاربين أحسن إليه وأضافه وقام له بما يحتاج إليه. وكذلك فعل علاء الدين علي بن حسن بن صبح في قرية حديثا، فشكرا وصار لهما ذكرا، فلبسا اثنيهما الخلع في نهار واحد كل منهما بإمرة طبلخاناه وذلك بواسطة ملك الأمراء جمال الدين قوش الأفرم نايب الشام لمحاربة المفسدين، ثم عاملوا أهل كسروان بما ذكرنا (صالح بن يحيى - تاريخ بيروت ص٧٨).

من هذا النص يتبين أن الأذية التي لحقت بالجنود المملوكية كانت واسعة ومنتشرة في البلاد كلها وليست فقط في كسروان، وقد صار التركيز على كسروان لإبراز دور الأميرين ناهض الدين بحتر وعلاء الدين بن صبح اللذين أصبحا بإمرة طبلخاناه، وكلفا بمحاربة المفسدين، وهنا كان يقتضي من كاتب المقال أن ينتبه إلى عادة جميع الناس بنهب الجنود المهزومة، ولم ننس بعد ماذا حل بجنود الدولة العثمانية في فلسطين وسورية من نهب وقتل في نهاية الحرب العالمية الأولى بعد هزيمتها في فلسطين كما كان يقتضي من كاتب المقال أن يستوعب مشكلة الصراع الطائفي القبلي بين الغرب التنوخي وكسروان الشيعي لأنها واضحة في نص صالح بن يحيى التنوخي، خاصة وأن المؤرخ المذكور يعترف بصراحة أن أهل كسروان أظهروا الخروج عن الطاعة (تاريخ بيروت - ص٢٧) ومعنى كل ذلك بوضوح أن كسروان كانت قد أصبحت في طاعة المماليك منذ حملة بيدرا - حملة السلام والتفاهم - ولكنها لم تكن في طاعة التنوخيين.

وقد نجم عن حملة أقوش الافرم على كسروان سنة ١٣٠٠ سيطرة المماليك العسكرية على المنطقة واستسلامها ومناداتها بالأمان، وغرمت بالمال والمنهوبات.

وكان من المفروض أن تنتهي المشكلة الكسروانية بعد تلك الحملة لو لم يعمد نايب الشام أقوش الأفرم إلى تسليم الاقطاع الكسرواني للأمراء التنوخيين، وانكشفت بذلك غاية التنوخيين بالسيطرة الاقطاعية على كسروان، ولقد رفض الكسروانيون أن يخضعوا للتنوخيين، وفي ذلك يقول سعيد عاشور: أرسل الأمير الأفرم نائب دمشق إلى الكسروانيين يأمرهم بأن يصلحوا أمورهم مع التنوخيين ويدخلوا في طاعتهم بوصفهم أصحاب الأراضي والإقطاعات (سعيد عاشور - العصر المملوكي - ص٨٠٢) وأدى رفض الكسروانيين الطاعة للتنوخيين إلى تأزم الوضع بينهما مما دعا نائب الشام أقوش الأفرم إلى ارسال بعثة توفيقية بين الجانبين برئاسة نقيب الاشراف في دمشق زين الدين محمد بن عدنان الحسيني ولكن البعثة فشلت في مهمتها (أما رئيسها فنجح في أنه تزوج أميرة تنوخية) وأرسل قوش الافرم بعثة ثانية اشترك فيها قراقوش وابن تيمية، ولكن الكسروانيين ظلوا على موقفهم يرفضون الخضوع لجيرانهم التنوخيين فأفتى ابن تيمية فتواه المشهورة بهدر دماء الشيعة الكسروانيين وهدم بيوتهم وحرق وقطع أشجارهم، وكانت الحملة المأساة المذبحة الكبرى سنة ١٣٠٥ التي انتهت بقتل معظم السكان وتهجير الآخرين إلى جزين وجبل عامل والبقاع وتفريغ كسروان من شعبه وتحريم سكناه على الشيعة.

هذا ما اقتضى توضيحه حول الاخطاء العلمية الواردة في مقالة الدكتور عمر عبد السلام التدمري عن الحملات الكسروانية.

أما من الناحية العاطفية الإسلامية فلقد كان على كاتب المقال أن يقيم نتائج تفريغ كسروان من أهله وتحول هذه المنطقة إلى سكن ماروني فيما بعد، طالما أنه يكتب من منطلق إسلامي كما يقول، لقد كان عليه أن يتساءل في النهاية من كان عدواً بالفعل للإسلام، أقوش الأفرم وأعوانه؟

تعقيب حول الموضوع للسيد حسن الأمين:

إن أزهى أيام طرابلس كانت في عهد بني عمار الشيعة وأن شيعة كسروان انقذوا كسروان من أيدي المردة (الموارنة) منذ القرن التاسع الميلادي وجعلوه داراً للإسلام، وحموه بعد ذلك من الاحتلال الصليبي طيلة الحكم الصليبي في الشرق، وكانوا دائماً خير مرابطين في هذه المنطقة، ولم يتخل الشيعة الكسروانيون عن كسروان إلا بسبب الخطيئة المميتة التي ارتكبها أقوش وأعوانه.

ويقول حسن الأمين تعليقاً على ما مر: إيغالاً في التضليل وتشويه الحقائق واتهام الشرفاء، يسمى كاتبو تلك الاحداث الجيش الذي هزم المماليك، يسمونه بـ (المغول) لما توحي به كلمة المغول من الوثنية وسفك الدماء والتخريب والتدمير، ولما لها في نفوس الناس من التأثير السيء فيتذكر السامع والقارئ (جنكيز) و(هولاكو)، وبعضهم يفعل ذلك عن غفلة، كما فعل ذلك صاحب المقال في حين أن الجيش الذي غزا المماليك كان جيشاً إسلامياً يقوده ملك مسلم، فاسم المغول انتهى من بعد هولاكو، وانفصل مغول إيران والعراق عن عرقهم الأصلي، وأصبح اسمهم (الايلخانيين)، وبدأوا بالاندماج في الحياة الإسلامية إلى أن أسلم ملكهم (غازان) وأعلن إسلام

المملكة الايلخانية، وعاد من كان أجدادهم مغولاً وثنيين - عادوا إيلخانيين مسلمين.

فالقتال كان دائراً بين جيشين إسلاميين: جيش إسلامي يقوده ملك مسلم، من أصل غير مسلم، وجيش إسلامي يقوده ملك مسلم، هو الآخر من أصل غير مسلم، فالمماليك كالإيلخانيين كانوا من أصل غير إسلامية.

فإذا تخرب أهل كسروان وغير أهل كسروان للإيلخانيين على المماليك، كانوا كمن يتحزب للمماليك على الايلخانيين سواء بسواء.

فالتهويل بأن أهل كسروان الشيعة تعرضوا للجيش المملوكي المهزوم من الايلخانيين - تعرضوا له (بالسلب والنهب والأسر) وتسمية الايلخانيين المسلمين بالمغول.

إن هذا التهويل وهذه التسمية كان يراد بهما تبرير ما فعله السفاحون بالشيعة بتحريض المتعصبين العمي، ذوي القلوب السوداء والعقول السوداء من أمثال ابن تيمية.

لم يكن شيعة كسروان وحدهم هم الذين تحزبوا للايلخانيين المسلمين، وتعرضوا لأعدائهم المماليك، بما سماه مزيفو التاريخ بـ(النهب والسلب والأسر) ثم زادوا على ذلك ما أوحته لهم عصبياتهم وأحقادهم، بأنهم أمسكوا بعض الهاربين وباعوهم للإفرنج!

وما دخل الإفرنج هنا، والحرب بين جيشين مسلمين، وأين كان الإفرنج يوم ذاك، ولماذا يبيعونهم للإفرنج، وليس للفرنج وجود؟ ولماذا لايبيعونهم لأعدائهم الإيلخانيين، لو كان ذلك صحيحاً؟!

لم يكون شيعة كسروان وحدهم هم الذين تحزبوا للايلخانيين على المماليك، بل انقسمت البلاد كلها بين المماليك والايلخانيين، وجميع سكان البلاد تعاملوا مع الجيش المملوكي المنهزم بمثل ما تعامل أهل كسروان فلماذا التركيز على أهل كسروان وحدهم؟

يقول ابن خلدون في الجزء العاشر (المجلد الخامس)، الصفحة ٨٩٢ من طبعة دار الكتاب اللبناني: «عاقب الأفرم كل من استخدم للتتر من أهل دمشق، وأغزى عساكره جبل كسروان والدرزية لما نالوا من العسكر عند الهزيمة).

إذن حتى أهل دمشق انقسموا قسمين: قسماً مع الايلخانيين وقسماً مع المماليك، وإذن فكل الناس، مال من مال منهم مع هؤلاء، ومال من مال مع أولئك، وإذن فكل الناس نالوا من المماليك المنهزمين، ابتداء من سهول دمشق حتى جبال لبنان.

وجاء في كتاب (خطط الشام ص١٣٩ ج٢) أرسل أقوش الافرم نائب دمشق إلى الجبليين والكسروانيين الشريف زين الدين عدنان يأمرهم أن يصلحوا شؤونهم مع التنوخية ويدخلوا في طاعتهم، ثم أرسل إليهم الإمام ابن تيمية في صحبة بهاء الدين قراقوس، فلم يحصل اتفاق، فأفتى العلماء حينئذ بنهب ديارهم بسبب استمرارهم على العصيان واباءهم الدخول في الطاعة (انتهى).

فصاحب خطط الشام في هذا القول يعترف بأنه كان المطلوب من شيعة كسروان هو أن يدخلوا في طاعة أعدائهم وكان من الطبيعي أن يرفضوا هذا الذل، وكان هذا الرفض هو ذنبهم الوحيد لما نزل بهم، لامايدعيه المدعون.